

## رسالة العظيم هي القيمةُ الكبرى



◀ "قد يكونُ مولدُ العظيم قيمة، لكن" رسالةه هي القيمةُ الكبرى".

وفي هذه الأيام نستقبل ذكرى ولادة نبـيـنا محمـد (صـ)، القضية هي أن نتمثـلـه هو في رسالته المتمثلة في شخصه، فرسول الله (صـ) إسلام كلـه، وهو القرآن الناطق، عقلـه عقلـ الإسلام، وقلبه قلبـ الإسلام، ومنطقه منطقـ الإسلام، وحركته حركةـ الإسلام، فليس فيه شيءـ غيرـ الإسلام حتىـ وهو يعيشـ في بيتهـ معـ عيالـهـ، وحتىـ وهو يتـحدـثـ معـ الناسـ. فرسول الله (صـ) لا يمكنـ أنـ يقتربـ منـ الباطـلـ حتىـ فيـ طرـيقـ أكلـهـ وشرـبـهـ.

التكامل في شخصية الرسول (صـ) :

ولهذا فإنـ الحديثـ عنـ أنـ رسولـ اللهـ (صـ) يخطـئـ فيـ غيرـ مجالـ التـبـليـغـ، حـديثـ عنـ تقـسيـمـ شخصـيـةـ رـسـولـ اللهـ، فـبعـضـ النـاسـ الـذـينـ يـتـحدـثـ ثـونـ عنـ عـصـمةـ فـيـ التـبـليـغـ وـعـنـ خـطاـ يـمـكـنـ أنـ يـمـتدـ إـلـىـ الـانـحرـافـ الـعـمـلـيـ أوـ فـيـ وـاقـعـ الـحـيـاـةـ، لـاـ يـعـرـفـونـ حـقـيـقـةـ إـلـاـنسـانـيـةـ، وـهـيـ أـنـ إـلـاـنسـانـ وـاحـدـ فـيـنـاـ، فـأـنـ إـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ مـعـصـومـاـ بـكـلـاـكـ، وـإـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ غـيرـ مـعـصـومـ بـكـلـاـكـ، أـمـاـ أـنـ تـكـوـنـ مـعـصـومـاـ فـيـ جـانـبـ، وـغـيرـ مـعـصـومـ فـيـ جـانـبـ، فـمـنـ الـذـيـ جـزـأـ عـقـلـهـ حـتـىـ يـلـتـقـيـ بـالـبـاطـلـ تـارـةـ وـيـلـتـقـيـ بـالـحـقـ، أـخـرىـ فـتـضـعـ بـذـلـكـ الـفـوـاـصـلـ لـتـجـعـلـ فـيـهـ مـنـطـقـةـ للـحـقـ وـأـخـرىـ لـلـبـاطـلـ؟ وـمـنـ الـذـيـ قـسـمـ قـلـبـكـ فـجـعـلـكـ تـنـفـتـحـ فـيـ عـاطـفـتـكـ عـلـىـ الـحـقـ تـارـةـ، وـتـنـفـتـحـ عـلـىـ الـبـاطـلـ تـارـةـ أـخـرىـ، لـيـكـونـ هـنـاكـ فـاـصـلـ بـيـنـ الـحـقـ وـالـبـاطـلـ فـيـ قـلـبـكـ.

إـنـّـا نـفـهـمـ مـعـنىـ الـعـصـمـةـ فـيـ النـبـوـةـ مـنـ خـلـالـ فـهـمـ مـعـنىـ النـبـوـةـ فـيـ الدـورـ، فـهـيـ لـيـسـ مـجـرـدـ شـخـصـ يـحـمـلـهـ أـنـ رـسـالـةـ لـيـكـونـ بـمـثـابـةـ سـاعـيـ البرـيدـ لـلـنـاسـ فـيـ إـبـلـاغـ الرـسـالـةـ وـيـرـجـعـ إـنـسـانـاـ عـادـيـاـ كـبـيـقـيـةـ النـاسـ. وـهـيـ فـيـ مـعـناـهـاـ: رـسـالـةـ اللهـ لـاـبـدـ أـنـ تـجـسـدـ فـيـ الرـسـولـ كـمـاـ فـيـ الـوـحـيـ، بـحـيثـ أـنـ اللهـ يـرـيدـ أـنـ يـغـيـرـ الـعـالـمـ عـلـىـ أـسـاسـ الـحـقـ، مـنـ خـلـالـ إـنـسـانـ يـتـجـسـدـ فـيـ الـحـقـ، وـإـذـا عـرـفـنـاـ أـنـ اللهـ الـذـيـ يـخـلـقـ الشـمـسـ نـورـاـ كـلـاـهـاـ، وـيـخـلـقـ مـاءـ يـتـفـجـرـ بـكـلـاـهـ وـيـعـطـيـ بـكـلـاـهـ، فـلـمـاـذـاـ لـاـ نـتـصـوـرـ أـنـ يـخـلـقـ اللهـ إـنـسـانـاـ هـوـ الـنـورـ كـلـاـهـ؟ كـيـفـ هـوـ الـنـورـ فـيـهـ؟ لـقـدـ خـلـقـ اللهـ عـقـلاـ فـيـهـ كـلـاـ الإـضاـءـةـ فـلـاـ يـنـفـتـحـ إـلـاـ عـلـىـ الـحـقـ، وـخـلـقـ لـهـ قـلـبـاـ يـمـلـكـ موـازـينـ الـعـاطـفـةـ فـيـ حـرـكـةـ الـعـاطـفـةـ بـالـحـقـ، وـهـدـاـهـ الـمـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ فـيـ حـرـكـتـهـ.

أَمّْا أَن يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْ بَعْضِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ عَاتِبِ رَسُولِهِ (ص) كَمَا فِي (عَفَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ) (التوبه/43)، فِي الْقُرْآنِ خُصُوصِيَّةُ لَابِدٌ أَنْ نَنْتَبِهِ إِلَيْهَا، وَقَدْ حَدَّثَنَا عَنْهَا أَحَدُ أَنْمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَهُوَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ (ع) فَقَدْ روَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِإِيمَانٍ أَعْنِي وَاسْمَاعِي يَا جَارَةً" فَإِذَا دَخَلَهُ يَخَاطِبُ النَّاسَ مِنْ خَلَّاهُ لِيَقُولُ لَهُمْ إِذَا كَانَ خَطَابُ الْعُنْفِ فِي فَرَضِيَّةِ الْأَنْجَرَافِ يَوْجِهُ إِلَى النَّبِيِّ فَكَيْفَ بَكُمْ! إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَصُوِّرَ عَظِيمَةَ الْقَضِيَّةِ الَّتِي تَعْنِي فِيهَا فِي خَطَابِ النَّبِيِّ لَا إِنَّ النَّبِيَّ (ص) يَعِيشُ أَجْوَاءَ هَذِهِ الْمَسَالَةِ، وَلَكِنْ لِيَعْرِفَنَا سَبَاحَنَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الْمَسَالَةَ بِمَسْتَوِيِّ الْخَطُورَةِ الَّتِي لَوْ صَدَرَتْ مِنَ النَّبِيِّ لَكَانَ عَزَّ جَلَّ مِنْهُ مَوْقِفٌ عَنِيفٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مَنْ قَبْلَكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَهُجُّ بَطَانَ عَمَّلْتَ) (الزَّمر/65)، فَهُلْ أَنْ فَرَضَيَّةُ أَنْ يَشْرُكَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ حَأْوُا بِالْتَّوْحِيدِ هِيَ فَرَضَيَّةٌ مَعْقُولَةٌ؟ بِالطبعِ لَا.

وَلَكِنْ كَمَا يَقُولُ الْفَلَاسِفَةُ فَإِنَّ (فَرَضَ الْمُسْتَحِيلَ لَيْسَ مُسْتَحِيلًا)، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ سَبَاحَنَهُ: (وَلَوْ تَرَقَ وَلَلْعَادَ يَنْدَعُوا بِعَصْمَ الْأَقْدَامِ وَلِلْعَادَ يَمْدُونَ \* ثُمَّ لَقَطَعَنَدَ مَنْدَهُ الْوَاتِينَ) (الْحَادِثَةُ/44-46)، وَلَذِكْرِ فَإِنَّ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُؤَكِّدَ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ فِي حَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهَا بِشَرِيعَةِ مَعْصُومَةِ الْوَحْيِ وَالْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ سَبَاحَنَهُ وَتَعَالَى لَهُ، وَعِنْدَمَا قَالَ رَسُولُهُ (ص) "أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلَيِّ بِاَبَاهَا" فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ كُلُّهُ اجْتَمَعَ فِي ذَاتِهِ، فَهُوَ الْمَدِينَةُ وَهُوَ الَّذِي تَجَدُّ الْعِلْمُ فِيهِ، وَعِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ عَلَيِّ (ع) عَنْ عِلْمِهِ فَإِنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّلْمِذَةِ عَلَى رَسُولِهِ (ص). وَلَذِكْرِ عَلَيْنَا أَنَّ لَا نَغْلُو فَنْسَاوِيَ عَلَيْهَا (ع) بِالرَّسُولِ (ص) أَوْ كَمَا يَغْلُو الْبَعْضُ فِي رَفْعِهِ فَوْقَهُ، فِي حِينَ أَنَّهُ يَقُولُ: "عَلَّمَنِي رَسُولُهُ فَأَنَا تَلَمِيذهُ" أَلْفُ بَابٍ يَفْتَحُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا يَنْدُ طَرْقُ عَنِ الْهَوَى) (النَّجَمُ/3)، أَنْ لَيْسَ لِلنَّبِيِّ هُوَ يَدْفَعُهُ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ أَيّْهَا كَلْمَةً مُخَالِفَةً لِمَا يَرِيدُهُ، وَلَذِكْرِ كَانَتْ كَلْمَاتُهُ شَرِيعَةً (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْأَيْوَمَ الْأَخْرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الْأَحْرَابُ/21).

لَذِكْرِ افْهَمُوا الْقُرْآنَ عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ رَسُولِهِ (ص) بِإِسْلَوْبٍ قَدْ يَوْحِي بِحَسْبِ بَعْضِ قَوَاعِدِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَنَّ الْكَلَامَ مُوجَّهٌ إِلَيْهِ وَهُوَ - فِي الْحَقِيقَةِ - لَيْسَ مُوجَّهٌ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخَاطِبُنَا مِنْ خَالِلِهِ، فَلَقَدْ تَعَلَّمَ رَسُولُهُ (ص) مِنَ الْقُرْآنِ هَذَا الْأَسْلَوْبُ عِنْدَمَا أَرَادَ أَنْ يَعْبُرَ عَنْ خَطُورَةِ مَسَالَةِ مَعِينَةٍ تَتَنَصَّلُ بِالنَّظَامِ الْعَامِ لِأَنْصِبَاطِ النَّاسِ فِي الْحَقِّ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّمَا أَهْلُكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَرَقُوا الشَّرِيفَ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الْمُضَعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِذَا لَوْ سَرَقْتَ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ لَقُطِعَتْ يَدُهَا"، فَهُلْ يَمْكُنُ أَنْ تَتَصَوَّرَ فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) تَسْرِقُ وَهِيَ الَّتِي أَذْهَبَهُ إِلَيْهَا الرَّحْمَنُ وَطَهَرَهَا تَطْهِيرًا، كَمَا أَذْهَبَ عَنِ أَهْلِ الْبَيْتِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ذَلِكُ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَبِيَّنَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَمْكُنُ أَنْ يَتَسَامَحَ مَعَ أَيِّ إِنْسَانٍ يَمْكُنُ أَنْ يَصْدِرَ عَنْهُ الْخَطَا حَتَّى لَوْ كَانَ فِي هَذَا الْمَسْتَوِيِّ.

الْعَمَلُ هُوَ الْأَسَاسُ:

فِي (طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ) أَنَّ رَسُولَهُ (ص) عِنْدَمَا كَانَ فِي مَرْضِ الْمَوْتِ وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ عَمَّهُ (الْعَبَاسِ) وَعَمَّهُ تَهُ (صَفِيَّةَ) وَابْنِتِهِ (فَاطِمَةَ) التَّفَتَ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَبِصَفَاتِهِمِ النَّسْبِيَّةِ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا عَمَّهُ رَسُولُهُ إِعْلَمُ لِمَا عَنْدَهُ إِنْزَلْتِي لَا أَغْنِيَ عَنِكَ مِنْ أَنْ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةَ بْنَتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا عَمَّهُ رَسُولُهُ إِعْلَمُ لِمَا عَنْهُ إِنْزَلْتِي لَا أَغْنِيَ عَنِكَ مِنْ أَنْ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ يَا بِنَتِ رَسُولِهِ إِعْلَمُ لِمَا عَنْهُ إِنْزَلْتِي لَا أَغْنِيَ عَنِكَ مِنْ أَنْ شَيْئًا) أَيُّ أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الْأَسَاسُ وَالشَّفَاعَةُ تَأْتِي فِي مَرْتَبَةٍ مَتَّخِرَةٍ، لَهُذَا عَلَيْنَا أَنْ نَفْهُمَ بِأَنَّ رَسُولَهُ (ص) هُوَ الْحَقُّ كُلُّهُ، وَأَنَّهُ الْعَدْلُ كُلُّهُ، وَأَنَّهُ النُّورُ كُلُّهُ، وَالصَّفَاءُ كُلُّهُ.

وَعِنْدَمَا نَقَفْتُ فِي ذَكْرِ رَسُولِهِ (ص) نَلَاحَظُ شَيْئًا يَتَنَصَّلُ بَعْضَ تَقَالِيدِنَا الْجَدِيدَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَحَتَّى فِي السَّنَدِ النَّبِيُّوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ لَمْ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَوْلَدِ أَيِّ نَبِيٍّ إِلاَّ نَبِيًّينَ فَقَطَ وَهُمَا: (مُوسَى) أَلَّا إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْهُ مِنْ بَابِ كَرَامَتِهِ بِهِ وَالْمَعْجزَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَرَادَ ذَلِكَ كَجَزَءٍ مِنْ تَصْوِيرِ الْبَيْتَةِ وَسِيَطَرَةِ (فَرْعَوْنَ) عَلَيْهَا، فَالْمَوْلَدُ هُنَا مَرْتَبَطٌ بِطَبَيْعَةِ الْقَصَّةِ لِأَنَّهُ لَهُ مَعْنَى حَامِيًّا.

## ولادة السيد المُسِّيْح (ع) :

والموارد الآخر، هو ولادة عيسى (ع) باعتبار أنها مظهر لقدرة الله وإلا فإن الإسلام بشكل عام لا يهتم بمناسبات المولد، بما هي تأريخ لللحظة تأريخية بعيدة عن المفاهيم العقائدية والتربوية، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة تأكيد حديث بعض الناس أن الاحتفال بالمولد بدعة فهذا كلام لا معنى له.

وفي الإسلام حركة العظيم هي القيمة، ورسالة العظيم هي القيمة، ولذلك نرى أننا عندما تحدث القرآن الكريم عن النبي ﷺ لم يتحدث عن مولده أبداً (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمْرِ بِإِنَّ رَسُولًا مِّنْهُمْ) (الجمعة/2)، (إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الأحزاب/45).. إلخ، فكلها تتحدث عن الرسالة، وهكذا بالنسبة للأنبياء، وعلى هذا فإن الإسلام يريدها أن ترتبط بالناس من خلال دورهم الحركي، فبمقدار ما يملك الإنسان من دور حركي وعطاء للإنسانية بحيث يغنى الحياة، يمكنك أن تتحدث عن تاريخه، فتاريخ الإنسان يبدأ من دوره لا من ولادته، وقد تحتاج أن تدرس حياة الإنسان منذ ولادته لنفهم بعض المؤشرات، أو نحيط بالشخصية كلّها، كما في اهتمامنا بحياة الأنبياء والأئمة (ع) منذ ولادتهم.

## أفضل هدية:

ولهذا فنحن نحتفل في مولده وفي مبعثه وفي إسرائه وفي معراجه على أساس أننا نحتفل به بصفة أنّه رسول الله وأنّه يمثل الإنسان الكامل، وأنّه يمثل قرآننا يتحرّك، فلقد كان الناس يقرأون القرآن من خلال كلماته، وكانوا يقرأون القرآن من خلال سيرته، وكانوا يسمعون منه الآيات ويتمثلونها في ملامحه وفي كل حركته وحياته.

ومن هنا أتریدون أن تقدموا هدية لرسول الله (ص) في عيد مولده كما اعتدتم ذلك في تقديمكم هدية لإنسان ما في عيد ميلاده؟ لا تقدّموا له الزينات في شوارعكم، ولا أناشد المولد في موسيقاكم وألحانكم وحسب بل ليقدّم كل واحد نفسه إلى رسول الله مسلم القلب والحركة والعلاقة والتلاّع ليقول له: يا رسول الله إنني أقدم نفسي كمسلم يعيش الإسلام من خلال كل ما عشته وبلا غفته، فهي أعظم هدية تقدّمها لرسول الله (ص).

وإذا كنت تعصي الله قبل ذلك في الصغير والكبير وجاء يوم المولد وأصبح الصباح عليك فدفع إلى الله من ذلك وقدّم توبتك هدية لرسول الله (ص) فإنه جاء ليتوب الناس عن الشرك وعن الكفر، وعن العصبية.

وإذا كنت متعصباً لعائلتك أو لشريك أو لمن تحب، فقل لرسول الله (ص): يا رسول الله كما أنت الذين أسلموا على يديك منذ البداية رفضوا عصبياتهم وجاؤوا إليك من أجل أن يعيشوا الرسالة معك بعيداً عن العصبية فإننا نرفض العصبية.

ليعيش رسول الله (ص) في عقولنا عقلاً إنسانياً منفتحاً على الحق، ولعيش في قلوبنا عاطفة إنسانية تحرّك في الخط العاطفي على أساس الحق، ولعيش رسول الله (ص) في حيّاتنا حركة للدعوة إلى الله، وللجهاد في سبيله.. ول يكن كل واحد منّا رسول الله (ص) ولو بنسبة الواحد إلى الألف، ول يكن فيينا شيء منه، من أخلاقه، ومن تقواه، ومن روحانيته، ومن حركته، ومن بطولته في سبيل الله، فذلك هو معنى المولد ومعنى الاحتفال بالمولد. ▶